- 1 -

حكايات مارقة

عـادت تلك الخشخشـة إلى أذنيه. شـيء مـا يحدث صوتاً يشـبه صوت حيوان صغير يتحرك فوق الحشائش عند منتصف ليل ريفي.

لـم يكن يعلم أين هـو ولا ماذا كان يفعل هناك. لم يكن يتذكر اسـمه ولا سـنه ولا مـا حدث له أمس. كانت صور امرأة يعلم أنـه يحبها تعود إليه، وهو يحاول أن...

لم يكن يحاول شيئاً على وجه التحديد.

كان يشـعر بالارتياح لأنه اسـتعاد وجه المرأة. وبسرعة استعاد ابتسامتها. ثم صوتها، ثم كلماتها. كانت تتحدث إليه كأنها أمامه، وهو يتحدث إليها غير عابئ بشيء آخر.

عاد إليه حديثهما ذاك كأنه لم يغب عنه أبداً.

- جميل أنك واقعية. أحب الأشخاص الواقعيين

- لست واقعية...الواقعية فقر كبير في الخيال...وأنا مغرمة بالخيال.

- جميل أنك تحبين الخيال.

- ما الجميل تحديداً.. أريد أخذ كلامك على مأخذ الجد.

- كل شـيء يصـدر عنـك جميـل... وهذا شـيء واقعي حـد الخيال. أحببت دائماً طريقتك في فعل كل شيء.

- الإنسان في العيون العاشقة رائع ولو كان مروّعاً في أفعاله.

– نحـن نحـب شـخصاً نتصوره فقـط. الناس علـى الصور سواسـية في الكذب على حقيقتهم.

– لي فكرة جيدة حول هذا الأمر. هل تريد أن تسمعها الآن؟

كان وجه المرأة أمامه.

أهداب.

هكـذا كان يريـد أن يسـميها. لا، هذا هو اسـمها. لم يكن يعلـم لماذا هو هناك. ولكنه كان يعلم أن اسـمها هو أهداب. كلمها كأنها أمامه. كانت أمامه رغم أنه كان بمفرده في ذلك النفق المظلم.

«(لي فكرة جيدة حول هذا الأمر. هل تريد أن تسـمعها الآن؟) قلتها ألف مرة في أعوامنا الشحيحة معاً قبل أن يفرق الـ... بيننا»

صمت لأنها تكلمت في داخله. كان يسمعها تتحدث. هل هذه ذكرياته أم مجرد استيهامات؟ تراه يحلم وهو لا يعلم أنه يفعل.

– قلها.

– بعض الكلمات لا فائدة من قولها.

– أحبك... وحدك لا شريك لك.

– أحبك... وحدك لا شريكة لك.

– كنت أنتظر الصيغة الأخرى التي أحبها كثيراً حينما تقولينها:

– أحبك

– مي تووو me too

– مي ثرييييي me three

«هـل يمكـن لجملة سـخيفة كهـذه أن يتكرر سـحرها ألف مـرة؟» كنت أتساءل وأنا مندهش من أثرك علي...

كنت تسمعينني طبعاً. وكنت تجيبين لأنك تملكين كل الأجوبة: «أنت رائع مرة واحدة... مرة واحدة فريدة جداً... ولكنها تتكرر بأشكال متشابهة قليلاً»

عادت الخشخشـة التي في أذنـه لحظة، ثم انجلت سـريعاً. كان قابعاً في ظلمته القديمة يسـمع نفسـه يتحدث إلى أهداب. أما هي فكانت تتساءل عن بداية كل ذلك.

– عد بنا إلى البداية، الطيب حبيبي.

الطيب هو اسمه. طبعاً. الطيب. من غيره؟ في تلك اللحظة تذكر أنهم قد نادوه مراراً بهذا الاسـم، وأنه قد اسـتجاب لهذا النداء ألف مرة. الطيب. نعم الطيب. من سواه؟

– البداية. البدايات طبق سخيف نتذكره من باب الرأفة بالحيوان. ولكنه يغلبنا بسلطة الذكريات.

– أحب جملتك هذه...

– الجملة هي أنت فيها من روحك... أنت مصدرها ومآلها.

– أحبـك أنـت... أيتها الجملة الرائعة في كتـاب الحب... تباً للصفحة الأولى... كذب نزار. الصفحات الموالية أفضل بكثير.

– لماذا...؟

– لا تسأل لماذا أبداً. هو سؤال الخاسرين وأنصاف الخاسرين.

– هل هناك أنصاف الخاسرين؟

– نعم... أناس لاقوا «الزفيطي» في جزائر 2027 ولم يأكلوه.

– يـا لحكايـة الزفيطي هذه. ألم تقولي لي آخر مـرة إنك تحلمين بأكل السوشي أو بعض غلال البحرية في شانغهاي؟

– بلى. ولكن مكانة الزفيطي خير من مكانة السوشي والبحريات.

– ما الفرق؟

– السوشـي حلم. والزفيطي[1] ذكـرى. والذكرى أقوى من الحلم دائماً. إلا على من لاقوا الزفيطي في جزائر 2027 ولم يأكلوه.

– هههه كأنك تقولين: أشخاص جاءهم الحب وخافوا من ملاقاته.

– الحب لا يأتي للخائفين وأنصاف الخائفين.

– ما حكاية النصف هذه؟

– لي نظرية حول النصف. هل تود سماعها؟

1- الزفيطي: أكلة شعبية جزائرية رائعة جداً، تسمى أيضاً (المهراس) لأنها أصلاً خبز مهروس مع مرق يقدم في المهراس الذي يحضر فيه.

كنت مغرماً بنظرياتك حول كل شيء.

– بالمناسبة... ما نظريتك حول ما يحدث اليوم؟ هل سيربح حراكنا هذا؟ الشعب كله في الشارع. هل ستتمكن السلطة من إرجاعنا إلى البيوت كما كنا من قبل؟ حكاية الفيروسات المتحولة والأمراض هذه لن تدوم طويلاً. أم ماذا ترين أنت في هذا الشأن؟

تتغير ملامحك بسرعة. شفاه متشددة وصوت أكثر أنوثة من أي شيء متفق عليه في «الدليل الأبدي للأنوثة».

– مثلما حدث في حراك 22 فيفري منذ ثماني سنوات. السلطة تملك سلطتي الإعلام والسلاح المشهر في إطار شرعي. لا أحد يغلبها إلا من خلال فضح طرق عملها. عدو السلطة هو نفسه عدو الكذب والظلم: الوقت. ما نفعله اليوم هو محاولة توعية الناس إلى وجود خلل ما في هذه البلاد وربما في العالم كله، خلل البلاد في الواقع هو صورة مصغرة عن الخلل في العالم. تفاوت يريده المستفيدون منه أن يبدو عادياً طبيعياً في الفرص والحقوق. وهذا ضد الطبيعة. ضد المنطق. السلطة تعمل على إلباس هذا كله بلباس المنطق. إشعار الناس بأنها الإمكانية الوحيدة المتوفرة. بأنها الخيار الأمثل الذي ستحل الكارثة في غيابه.

– سنخسر هذه المعركة أيضاً إذن؟ ولكنك طبعاً لا تعلمين كيف؟

تبتسمين أكثر. وتتخذين وأنت تسيرين إلى جانبي طريقة في المشي تشبه طريقة عارضات الأزياء.

– لماذا هذه المشية التي تقطر إغراء؟ الشارع كله ينظر إليك.

– يهمني أن أحسن إلى جميع من هم في الجوار. هههه

– طوبى للجوار.

– ألست أنت من علمني قاعدة القديس أوغسطين (إذا كنت لا تستطيع الإحسان إلى الناس أجمعين، فراع من وضعهم القدر أو الصدفة في جوارك وأحسن إليهم).

– علم كبيييير هذا. ولكن في جوارك في هذا الشارع ألف رجل، هل ستحسنين إليهم جميعاً؟

– لا.. حبي.. يهمني فقط أن أحسن إليك أنت يا أجمل جوار في الرصيف الكوني.

– كيف تتسربين من موضوع الحراك الشعبي والسياسة إلى الإغراء؟ ثم إنني مشتعل تماماً. تتعبين نفسك فقط في محاولة الاستزادة هذه.

– أولاً: الحراك الشعبي طاقة حيوية إيجابية مثله مثل الحب والجنس. والسياسة هي خوض إيجابي في الحياة من أجل تسيير شؤونها ومحاولة الحصول على أفضل ما فيها، وهذا يصلح تعريفاً للحب أيضاً. أما عن اشتعالك، وإشعالي إياك أكثر فأنا يا أيها الطيب الطيب أحب منظر النار ورائحة الاحتراق.

– مجنونة.

– لي نظرية حول الجنون. تريد أن تسمعها؟

كانت لك ألف نظرية وتطبيق واحد. تطبيق صارم جميل واحد: تتلبسين بعزيمة الأيام الهامة.

كنت أعشق طريقتك في الإعلان عن الغد المتحجر الصارم في مكالماتنا الليلية المخملية الرائقة: غداً لي أعمال كثيرة. غداً يوم مهم.

أحببتك لأنك مثل اللاشعور حرة صادقة لا تهتمين بالأعراف وواضحة الرؤية. أنت أفضل من اللاشعور لأنك خيالية وواقعية، فيما هو واقعي فقط أو خيالي فقط. لا يكون الاثنين معاً أبداً.

عادت خشخشة صغيرة وجاء معها صوت يعرفه. كان مستلقياً على بطنه ولم يكن قادراً على الالتفات صوب الأعلى. سمع الصوت بوضوح: «هذا مأخوذ عن جلال الدين الرومي. من جمال الحياة أن الله يبعث في طريقك ما يوقظك بين الحين والآخر، أنت الذي ظننت لوقت طويل أنك مستيقظ. نعم. كل هذا في كتاب الحب ذاك. ضعه كما هو نعم. هذا أيضاً سيكون في الكتاب. وهو للوريا الحكيم. أليس كذلك؟... لا لا هو للرومي أيضاً. احفظ البيانات بالترتيب. الرومي. نعم. حفظة أسرار الحب يتكلمون بصوت منخفض وهامس، الله وحده يعلم ما يقولون. نعم هذا للرومي أيضاً»

سـرت برودة عميقة في ظهره. انقطع الصـوت المألوف كأنما أُغلق دونه باب ما. أراد أن يشم رائحة ما تدله على شيء ما.

لا شـيء حولـه. ثـم عاد وجـه أهـداب إلـى الظهـور. كان فيها شـيء ما مختلف. كل شـيء فيها هو هو نفسـه عدا... عدا قصة شعرها. لم يحدث أن قصت شعرها.

– لماذا قصصت شعرك يا طفلة؟

تظـل صامتـة. تصدر إيماءة معناهـا: هكذا فقط. عن لـي الأمر ففعلته بلا سبب قوي واضح.

– لا يهم أنت جميلة جداً، وجميلة مثلما ينبغي لك.

–...

– أحببتـك لأنك مثـل الرياضيات: عادلـة ونظيفة. عميقة وتسـتلزمين الاهتمـام. يمتحـن فيـك ألـف واحـد ويربـح معـاركك أصحـاب الجمـال الداخلي فقط.

تجيبه أخيراً متسائلة:

– ماذا عن الفيزياء؟

– لـم أحبهـا يوماً. ولكنني تسـامحت معها لأنها كانت تضمـن بقوانينها المتيبسة مثل عقلية أمي وجدتي استمرار العالم الذي يجمعنا.

– أنت مجنون.

– لـن أقـول إنني مجنون بحبك لأنها جملة مبتذلـة. ولكنني على يقين أنك تذكرين أن لك نظرية حول الحب. لا؟

توزعين ضحكتك. ضحكة الفـرح العميق التي تبدو دائماً أنها تكتم أكثر مما تفضح. ضحكة تنغلق لها العينان بحثاً عن مشـاهد أكثر وهجاً من كل ما تلتقطه العينان في شوارع العاصمة.

– مجنون لأن الجنون هو البلاد الوحيدة التي نلتقي فيها.

– هل ستهجرني يوم أن يثوب إليك رشدك؟ يا ويلي!

– لا أحد يستطيع أن يجبر مجنوناً على الإجابة.

كان وجـه أهـداب داخل دماغه يحـارب دغدغة الخشخشـة الغريبة التي

صـار علـى يقين أنها في دماغه، وليسـت في أذنـه. تماماً مثلمـا هي أهداب. ولكن هذه الأخيرة كانت تأتي فينسـحب الدماغ كله لصورتها وهي في كامل أبهتها. سـروال الجينز والصدار الأزرق السـماوي والشعر المحمر قليلاً في انسجام لا يبشر بخير مع سمرتها الخفيفة التي لا تتماشى مع حمرة الشعر.

أين أنت الآن يا أهداب؟

وأين كنت طيلة كل هذه القرون؟

يبدو لي أنني إنما خلقت لأحبك. أحاول تحليل وجودي السـابق وأجده خالياً من كل معنى.

أحـاول تصـور أنني قـد مت في ذلـك الحادث الـذي زعزع ثقتـي بالحياة العائليـة المكتظـة: كنت أقفز من مكان إلى زمان كحـال الطفل المولع بالحياة الذي كنته، وكانت أمي تحمل بيسراها رضيعاً هو شقيقي بيبيشو، وتنقل باليمنى غلايـة الحليب الذي بلـغ ذروة مقام الغليان من فوق الموقد إلى فوق الطاولة، اصطدمـت بيدها فاندلق الحليب الآتي من جهنـم على الوجه الملائكي الذي كان زملاؤه يكرهونه في المدرسة الابتدائية لأنه كان يعرف كل شيء.

– حبيبي يعرف كل شيء. ولكنني متأكدة أنك ستفشل في جمع نظرية الحب بين اليهود والمسـيحيين والمسـلمين. أرى من هنا مواقع الضعف في عملك هذا المجنون.

تذكر الطيب عمله.

كان المكان يشبه حفرة كبيرة بلا رائحة.

أين أنا يا ترى؟

كان المكان موحشاً جداً.

وكان دماغه يتشـبث بالشـيء الوحيد الواضح له في ذلك الغبش الشـديد الـذي موسـيقاه الوحيـدة المتوفرة هي خشخشـة حيوانية فوق عشـب ريفي ليلي:

أهداب وهي تتجول في شوارع العاصمة.

أهداب وهي تأكل الزفيطي.

أهداب وهي تنظف سمكة كبيرة من هيكلها وأشواكها.

شفتا أهداب وهما تخفيان مضغها كأنهما تتكتمان على أسرار تمس بأمن الدولة.

أهداب وهي تقلب ألبسة تريد أن يراها الطيب ويبدي آراءه فيها.

أهـداب وهي ترد علـى التلفون بأجمل «أللووووو» فـي تاريخ التواصل الهاتفي.

أهـداب وهي تعارضـه. لقد خلقـت للمعارضة. «الجميلـة تفقد جمالها وهي توافق على كل ما يقال». لا يدري أين سمع هذه الجملة التي ربما تكون أهداب هي قائلتها.

– ابن تيمية هو أضعف ما في المشروع. نظريته في الحب سطحية.

– أنا أحب ابن تيمية. تعرفين ذلك.

– أشهر ما يتداوله الناس حوله هو أنه يبرر العنف شرعياً.

– القديـس أوغسـطين كان وراء حروب قضت علـى آلاف الموحدين بسـبب اختلاف عقيدته عـن عقيدة الأريوسـيين والدوناتييـن الموحدة التي كانـت فـي الفجر الأول للمسـيحية ترفـض التثليث. ومع ذلـك فهو رمز من رموز الحب. التاريخ يقول الشيء ونقيضه يا حبيبتي.

– فعـلاً... التاريـخ هراء دائماً. لهذا أفضل جغرافيـاك على تاريخك أيها الضخم اللين.

– هههه... تباً لك.

لعناقها أناشيد صامتة صاخبة لا تطيقها أذن ولا قلب. لعناقها مذاق مركب مـن ألف فاكهة أغلبها مجهول. عناقها هو أقـرب الصور إلى الجنة كما كانت جدتـه زهرة تصفها وهـي تصلي داعية الحفيدات إلى الصلاة في عالم كان قد بـدأ يتعـود على اعتبار الصلاة سـلوكاً عتيقاً لا يناسـب الزمن. لـم تكن زهرة تدعو ذكور العائلة إلى الصلاة. لا بد أن لأهداب نظرية لتفسير ذلك الأمر.

– هل تذكر الحريق المبكر جيداً؟

– ليس جيداً ولكنني أشـعر اليوم بعد التأمل بهول ذلك الحريق. تعلمين لمـاذا؟ لـو أنني مـت يومها حرقاً ما كنت سـأجدك. وما كنت سأسـتلقي إلى

جانبك كما يفعل الرضيع إلى جانب أمه المشتعلة حباً. ولما عرفت أن الموت بين يدي امرأة تحمل علامات الحب على جسمها ووجهها، وتفضحها تماماً عيونها الصادقة وابتسامتها البلهاء، ذلك هو الحياة الوحيدة الجديرة بالتاريخ. ما عدا ذلك حشو لا فائدة من أخذ صور له، ونقله إلى الأجيال اللاحقة.

– حبيبي أنت. خلقت لكي أحبك يا الطيب.

– كم أنا محظوظ بحبك!

– قل لي ماذا تذكر من أيامك تلك في بدايات هذا القرن المحظوظ بنا مقيمين رائعين في فنادقه الزمنية؟

– أذكر الكره المضحك الذي كان زملائي الصغار يكنونه لي. كانوا يسمونني «معلمتي»، لإغاظتي لأنني أصلح أن أكون امرأة في عرفهم، وذلك أفظع ما يمكن أن يصادفه طفل من التهم، والحقيقة أنهم كانوا يجهلون تماماً أنني كنت جاهلاً بكل شيء له معنى في انتظار دخولي مدرسة الحب والتعلم الحقيقي على يديك الناصعتين المتقاطرتين حباً.

– كان عليك أن تتعاطى حب العلم بحماس أقل. أليست قاعدة القديس الذي تقدسه أن تلتزم الوسط.

– اتبعت قاعدته الأخرى. هو يقول إن كثيراً منا يفضل الإقلاع التام على الاجتهاد في ضبط النفس.

– والله؟ جميلة هذه لم أكن أعلم أنه قال شيئاً جميلاً كهذا.

– نعم. هذه من أفكاره. وقد طبقتها فارتحت عندما اختفى صوت حضوري في المدرسة.

كانت صورة أهداب تتلاشى أحياناً، فيستحضرها قسراً لقهر الوحشة. وكان يحدثها بصوت خافت يلعلع الأرجاء الغارقة في الدياجير التي لا يفهم جيداً معناها.

(هل أنا مقبور بشكل ما؟)

كان يفضل التركيز على صورة أهداب وهي قبالته في مطعم أو مقهى أو

أي مـكان آخـر فيه ضوء كاف لظهور وجهها الأسـمر الجميـل. وكان يتكلم إليهـا على فـرض أنها تسـمعه. يتكلم.. ينطـق بجمل آتية مـن الحنجرة حيناً وأحيانـاً مـن الذاكرة. جمل جاهزة وواضحة المعالـم. جمل يقولها أو يعتقد أنه قد سبق له أن قالها.

كنت أراك دوماً على شكل تمثال من عسل. تصوري.

أحاول دوماً قهر صمت هذا المكان الموحش الذي لا أشبع منك فيه.

مستقبل لا ماضي مشتركاً بيننا فيه ولا قدرة لنا على خلق ذكريات نلتهمها فيه هو زمن بور. زمن لاغ لا قيمة له. زمن لا زمن فيه ننتظره.

منذ... لا أدري منذ متى. الوقت في حبك لحظات تتمطى بلا كلل.

تمثال العسل هو هذا بالضبط. افهميها أو دعيها.

منذ زمن أحاول وضع اليد أو القلب على أهم ما أحدثته فيّ مذ عرفتك.

سؤال كبير حينما يشعر الواحد بأنه سؤال عاش برفقته مائة عام.

أحـد أكبـر التغييـرات التـي أحدثتهـا فـيّ كان المصالحة مـع المقولات الشائعة حول الحب.

بدون أي وعي مني وجدت نفسـي أبتعد قليلاً وأتأملك ملياً وأنا أكرر مع ريلكه: «بمجرد قبول فكرة أنه حتى فيما بين أقرب البشر قد تستمر المسافات اللانهائيـة، يمكـن جـداً أن تنمو حيـاة رائعة بيننـا ونحن جنباً إلـى جنب، إذا نجحنا في خلق ألفة تلك المسـافة بيننـا مما يجعل من الممكن لكل منا رؤية الآخر كله مقابل السماء.»

كلام كهـذا كنـت أظنه لا يحـدث إلا في الكتب. وبسلاسـة تامة وجدت نفسي أسـتلقي وأنا أتنفس بعمق متذكراً جيمس بالدوين وهو يقول: «الحب يمكننا من خلع الأقنعة التي غالباً ما نخشى أننا لا نستطيع العيش بدونها، مع شعورنا فجأة بأننا لا نستطيع العيش بها.»

أنـا؟... يااه... لا يشـبهني هـذا الكلام. أو لم يكن يشـبهني تماماً إلى أن عرفتـك، سـاعتها فقط دخلت الكتب من بوابة الحـب، وأصبحت أرفض أن أعيش حياتي إلا إذا كانت من الحيوات التي لا تكون إلا في الكتب.

كم أحب هذه المقولة الرائعة لهيرمان هيسه، كأنه كان يتكلم بلساني وهو يقـول: «إن كنت أعـرف للحب معنـى، فالفضل يعود إليـك»... نعم الفضل يعود إليك؛ وحدك لا شريكة لك.

وبفضلك أيضاً أصحبت أحب العاصمة.

تصوري.

هههههه.

من كان يصدق شيئاً كهذا؟

المدينة الباردة المعدنية. مدينة العاصميين بتلك المسـافة التي يقدسونها بينهم وبين العالم. أنا العاصمي الذي ورث عن أمه كره بهارج المدينة الكبيرة ونفاق أهلها وجمودهم العاطفي.

سـمع الخشخشـة في دماغه. تذكر مرة أخرى أن أهداب قد تتسـرب من ذاكرته في أي لحظة لتترك مكانها للصمت والعجز عن الحركة.

فجـأة بـزغ له وجـه غريب. وجه بدا لـه مألوفاً. لابد أنه شـخص قد عرفه جيـداً. قـال شـيئاً غامضاً ومضـى. بعدها عادت صـور أهداب فـي الحراك. «جزائر حرة ديمقراطية».

العاصمة غيرت حللهـا وحليتها. وازدادت بهاء أيام الحراك. أيام الحراك الثاني خاصة. جزائر حرة ديمقراطية كما أرادها جيل الذين درسوا في الجامعة.

النخبـة الشـريفة. شـرفاء الجيـش: شـرفاء الأحزاب. شـرفاء المؤسسـة الدينية. شرفاء الإداريين. شرفاء القدامى.

انجلت صورة الرجل المألوف. ظن أنه شخص كان قد عرفه على هامش الحراك. كان الحراك هديراً صاخباً يقف كخلفية مناسـبة لكي تصرخ أهداب فـي شـوارع العاصمة بلهجتها الشـاوية التي لـم تعدلها العاصمـة إلا تعديلاً طفيفاً: نْحَبَّاااكْ.

لقد صارت الجزائر العاصمة هي أنت، وصرت أنت هي.

عاصمـة لذتـي المتاحـة بأقسـاط محـدودة. ولكـن المتاحـة، وفي ذلك الفرح كله.

أستعيد دوماً بدهشة الأوائل والفرائد تفاصيل كل لقاء.

اللقاء هو واقعة رائعة متكررة نصاب بها... شيئاً فشيئاً تسقط تفاصيلها الناشزة فلا يبقى غير الصورة المجملة التي صرنا نسميها اللقاء.

صورة سلام يسبح بيننا، سلام يفتك بوسة على الشفتين أو على جانبيهما، ولو وسط الجموع الغفيرة للجزائر التي طورت عبر السنين مفهوماً ضيقاً للحياة، للحب، للتعبير عن العاطفة، للسياسة، للدين...

كانت البلاد كلها مشوّهة، ولا عذر لها ولا شفاعة ممكنة إلا أنك أنت منها وفيها. تنتظرين تحقيقي لحلم أن أهبك فتاة ترضعينها وأنا جالس خلفك أداعبك. «لقد خلقت لإعطاء الحياة» كنت تقولين.

أنت العلة الأولى والأخيرة لوجود فارغ من كل معنى وجدوى.

أنت عذر تاريخي يشفع للبلاد كلها تعلمين؟

اللقاء ابتسامة على الطريقة التي كنت أقولها مستلاً إياها لك من أغنية شارل آزنافور:

Je souris malgré moi

Rien qu'à te regarder

إيييه أهداب.

صالحت بيني وبين الأشياء كلها تعلمين.

قطعاً تعلمين. مراراً قلت لي إنني أمامك شفّاف، لا أستطيع تشكيل أي سر. (أعرف شفرتك) كنت تقولين لي.

عادت الخشخشة، وعاد صوت الرجل الغامض، ثم عادت صورته. يعرفه جيداً. إنه أبوه. قال شيئاً غامضاً سمع منه ما يشبه (لن يحدث ذلك). أجابه صوت آخر («هم» مهتمون به كثيراً. علينا أن نكون حذرين). أجاب وجه بلا ملامح تماماً.(«هم»؟ أإلى هذا الحد؟ ألديه حكايات مارقة؟ هل أنت متأكد؟). ضحك الصوت الأبوي الأول وقال (علينا أن نحاذر. كل الحكايات صارت قنابل موقوتة). وانتشرت بينهما ضحكة مهترئة لا تدل على شيء واضح.

لو كانت أهداب هنا لعرفت عن ماذا يتحدث هذا الشبح المتأنق مع رفيقه الذي لا ملامح له.

لا ليس أباه. كان له صلة بأبيه. لهذا بدا له كأنه أبوه.

ركز الطيب جيداً فأحس لأول مرة بأنه عاجز عن تحريك أطرافه.

ما هذا؟ أين دوبة؟

دووووواااااا. أنا هنا عاجز عن الحياة دونك.

أراد أن يبكي غير مبال بالرجل الذي يشبهه وهو ينظر صوبه.

انتبه فجأة إلى أن الرجل يشبهه تماماً. صورة معادة منه مع فائض في الأناقة كان الطيب ينفر منه عادةً.

أرعبه أنه يرى نفسه يتفرس في نفسه، ويسمع نفسه تتحدث إليه بكلام يكاد لا يسمعه، فإن سمعه فهو لا يكاد يفهم منه شيئاً. وأرعبه أكثر إصراره على الحركة وسط عدم استجابة أعضائه.

ما بك يا الطيب؟

أين أهداب.

تظهر صورتها فيأتي معها النور وتسيطر على الحواس كلها. أو على ما تبقى منها.

حبيبتي لماذا تختفين وتعودين إلى الظهور.

تحركت الخشخشة حركة خفيفة في أذنه. ولكن صورة أهداب وهي تتكلم بالانكليزية عادت قوية. كانت تتلو شيئاً جميلاً.

كانت تغني.

كانت تتلو كلمات أغنية سمعهاها ألف مرة وغنياها معاً ألف مرة.

شق ظلام القبر الذي كان فيه بالغناء بصوته العالي. تجاور وجه الرجل الذي يشبهه ووجه أهداب. كلمها هي لكي ينمحي وجه الرجل الغريب الأليف.

Swaaaaay with me

سمع موسيقى الأغنية تأتيه بقوة كبيرة أكبر.

تذكرين يا دوبة؟ كل شيء بيننا كان يحدث بهدوء وبسلاسة وبعمق.

(هي فجأةٌ، لا تفاجئنا إلا برفق) كنت تقولين.

نعم.

فجأة صرت أبحث داخلي عن طاقة للحقد واللامبالاة، فلا أجد ولا حتى فُتاتاً أسـد به رمق القلب في سـاعات الحنق، وضرورة عدم القفز على ما هو تافه مقرف ثقيل على الهضم...

أجّجت حواسي كلها يا طفلة.

كنـت امرأة كاملة التكوين وكنت تحبين كلمة «طفلة» التي تذكرك بشـيء عميق فيك غير واضح الملامح.

كنت تبتسمين «ابتسامتك البلهاء» تلك وتقولين «نعم حبيبي»...

كلمة رائعة هي حبيبي.

حبيبي كلمة/ عنقاء؛ هي ميتة قادرة على الانبعاث ألف مرة في اليوم.

نفضـت عنهـا الابتذال الذي لصـق بها لقـرون طويلة، وهي تتـداول بين أيدي العشاق الخاطئين والمزيفين والذين لا يفرقون بين الحب وبين أشباهه ونظائره.

«يخلق من شبه الحب أربعين»... قلتِها ضاحكة ولكنني لم أغفرها لك.

سـافرت إلـى كل مكان. زرت قلوبـاً كثيرة. حالي في ذلـك حالُ الكتاب والشعراء. وأستطيع من أعلى كل هذه السنوات التي راكمتها أن أقول لك بلا ابتذال التلفزيون والأغاني: حبك لا شبيه له!

ألم نكن بصدد الحديث عن الحب في العاصمة؟

– الحب في العاصمة يحيلني دوماً على الزفيطي. هههه.

– الزفيطي ليس عاصمياً.

– الزفيطـي الذي فـي تاريخي العاطفي معك عاصمي أكثر من أي شـيء آخر.

عادت الخشخشة.

سـمع صوتاً يخترق الخشخشـة. (ليسـت حكاية مارقة ولكنها تشبهها). لا وجه كان يقف خلف الصوت. غبش واسع يخترق الظلام الذي يخترق الغبش.

اتسـعت الخشخشـة فـي دماغه إلـى أن صـارت تخفي كل صـوت وكل صورة سواها.